الكرامة
كرامة الوطن من كرامة المواطن

عن الحكام الخدم - آخر خدمة الأمريكان

د. روءف عباس

الثلاثاء، 16 يناير 2007

تابعت من غيرى من الجماهير العربية مشهد إعدام صدام حسين عشية عيد الأضحى على يد بعض بلطجية المليشات الشعبية بطريقة محملة بكثير من المعانى لعل أبرزها اعتبار صدام أضحية. قصد منظمو ذلك المشهد به إهانة رجل يرون فيه خصما سياسيا لآل الصدر وقاتلا لإمامهم. وربما أراد الأمريكان بتسليمه لهم والموافقة على نحره عشية العيد رسالة يبعثها المحافظون الجدد إلى العالم الإسلامى مفادها الاستهانة بمقدسات المسلمين وأيامهم الحرم، وكأن بوش يريد أن يقول لهم "طظ فيكم". غير أن ما أبداه صدام حسين من شموخ ورباطة جأش بل السخرية من جلاديه عندما تعالت أصواتهم بالهتاف لمقتدى الصدر والدعاء على صدام بأن يكون مصيره جهنم، فرد عليهم ساخرا ورقبته داخل "الخية": "هل هذه رجولة ؟!". وعبر أولئك الأنذال عن فرحتهم بالرقص حول الجثمان بصورة تتنافى مع أناس ينتمون إلى بلد كان من مراكز الحضارة الإنسانية الأولى، وإلى الثقافة الإسلامية التى تتعارض تماما مع ذلك المشهد الشائن.. فمشاهد هذا الحدث التى تناقلت الفضائيات ما يمكن إذاعته على الناس، وعرضت المشاهد كاملة على الشبكة الدولية للمعلومات، أثارت اشمئزاز العالم كله شرقا وغربا، كما أشعلت مظاهرات الاحتجاج فى العالم الإسلامى كله الذى تلقى رسالة بوش الموجهة للإسلام والمسلمين فخرجوا يهتفون باسم صدام "شهيد الإسلام" كما خرجت المظاهرات فى المغرب وليبا والأردن تهتف باسم صدام "شهيد العروبة"، وأقيمت مجالس العزاء هنا وهناك.

ودع العالم صدام بعد 35 عاما قضاها على الساحة السياسية لعب فيها أدوارا فى العراق وعلى اتساع الإقليم كله، من بين تلك الأدوار دور زعيم القومية العربية الذى تركه جمال عبد الناصر شاغرا بعد رحيله، وتنازعه صدام والقذافى. ولكن صدام توفرت له من الإمكانات المادية والقدرات السياسية ما جعله يحقق نتائج أفضل فى لعب هذا الدور بالحدب على الفلسطينيين ورعايتهم ورفع شعارات تدعو إلى تحرير فلسطين من النهر إلى البحر دون أن يتوج ذلك بعمل إيجابى، وجاء إتجاه أنور السادات إلى الصلح مع (إسرائيل) ليدعم دور الزعامة القومية الذى لعبه صدام، فكان قطب الرحى فى جبهة الرفض. وفتح أبواب العراق أمام كل مطارید السادات من الناصريين وغيرهم، وأغدق على من أصدروا صحفا قومية فى بعض البلاد العربية وبعض العواصم الأوروبية، كما استفادت مشاريع التنمية فى العراق بخبرات كل من لجأ إلى العراق من المصريين ومن بينهم علماء الذرَّة الذين لم يقبلوا الجلوس خلف المكاتب تحت لافتة هيئة الطاقة الذرية بعدما قام السادات بإيقاف المشروع المصرى. وفتح سوق العمل فى العراق على مصراعيه أمام المصريين من العمال غير المهرة إلى الفنيين وحملة الدرجات العملية العليا، بل شجع من سبق له الخدمة بالجيش المصرى على الانضمام إلى الجيش العراقى فى الثمانينيات لقاء مزايا مادية مغرية. فقصد العراق الشباب العربى من المحيط إلى اليمن للعمل فى تنفيذ خطة التنمية العراقية الطموح، ولكن محاولات تجنيدهم فى حزب البعث التى تطلع إليها صدام لتكريس زعامته للقومية العربية لم يكتب لها النجاح كذلك لم تنجح محاولة الإنفراد بزعامة حزب البعث، بسبب وجود منافس آخر عنيد هو حافظ الأسد.

هذا الدور الذى لعبه صدام، دور زعيم القومية العربية، كان مردوده الإنسانى ذلك الحزن النبيل على صدام الذى تجلت مظاهره فى مجالس العزاء وغيرها فى مصر والمغرب والأردن وفلسطين واليمن. وقد لعب صدام هذا الدور باعتباره من متطلبات الدور الإقليمى الذى تطلع إليه ليسد الفراغ الذى تركه عبد الناصر. وإذا كانت الأقدار قد ساقت هذا الدور إلى عبد الناصر فى ظروف تاريخية معينة، فإن صدام الطموح سعى إلى خلق الظروف التى تتيح له لعب هذا الدور: اللعب مع الأمريكان وليس ضدهم، ولا يمنع ذلك من أن يعطى مؤشرات العداء لهم من حين لآخر فى الحدود التى لا تلحق الضرر بمصالحهم، وتحفظ له صورة الزعيم القومى.

فى حياة صدام، كانت هناك معلومات تدور مدار الشائعات عن علاقة صدام بالأمريكان. زاد ترديدها عندما تورط فى الحرب ضد إيران، وكانت وسائل الإعلام المشمولة برعايته، والأقلام العربية التى إقتنعت بدوره القومى أو شبه لها فراحت تدافع عنه بإخلاص، أو غيرها من الأقلام التى وظفت للقيام بهذه المهمة ولكن الرحيل الدرامى لصدام بدأ يزيح الغطاء عن قصة صدام مع الأمريكان منذ بدأ رحلة الصعود السياسى، فى عدد من المقالات التى نشرها كتاب معارضون لحرب العراق تعقيبا على الطريقة الدنيئة التى تخلصت بها أمريكا من صدام.

فقد اختار الصحفى الأمريكى روبرت شير المناهض للحرب عنوانا لمقاله الذى نشر فى 2 يناير "الوحش الذى صنعناه" يذكر فيه أن صدام كان صنيعة أمريكا منذ اليوم الذى أصبح فيه نائبا للرئيس أحمد حسن البكر، وأنه شن الحرب على إيران بالإتفاق والتنسيق مع المخابرات الأمريكية، وأن إتفاقا سرياً ُ برم بينه وبين إدارة ريجان على يد رامسفليد عام 1981 ظل مرعيا حتى قبيل غزوة الكويت عام 1990. ويذهب الكاتب إلى أن أمريكا أصبحت صاحبة مصلحة فى التخلص من صدام لتبادأ صفحة جديدة من مخططها للسيطرة على الخليج وتصفية النظام الإيرانى، فكانت خطة غزو العراق وإسقاط نظام صدام فى طليعة أجندة المحافظين الجدد حتى قبل 11 سبتمبر 2001، وأن إعلان دونالد رامسفيلد أن صدام أسير حرب كان يعنى الحفاظ على حياته، وتقديمه لمحكمة دولية قد يؤدى إلى إفشاء أسرار بالغة الخطورة على المخطط الإمبراطورى الأمريكى، ومن ثم كانت تلك المحاكمة المهزلة أمام محكمة عراقية والإعدام بهذه الطريقة لتدفن أسرار أمريكا معه فى قبره !!

مقال آخر كتبه الصحفى البريطانى المعروف روبرت فيسك بجريدة الإندبندنت فى 6 يناير إختار له عنوان: "صحبته أسراره إلى قبره"، ألقى فيه المزيد من الضوء على تلك العلاقة المركبة التى ربطت صدام بأمريكا، وخاصة أن روبرت فيسك من الصحفيين الذين تربطهم صلات وثيقة بالعديد من أجهزة المخابرات، ويمارس عمله فى الإقليم من بيروت التى قضى بها السنوات الثلاث الأخيرة.

يبدأ فيسك مقالة بأن علاقة بلاده "بريطانيا" وأمريكا بصدام طوال عقد الثمانينات تشكل أكثر ما شهده الإقليم بعد الحرب العالمية الثانية خسة ودناءة وبشاعة وعدوانية ويبدأ التعاون "الشائن" مع صدام "فى رأيه" منذ تولى مقاليد السلطة فى العراق، فزودته المخابرات الأمريكية بعناوين مساكن أعضاء الحزب الشيوعى العراقى فى بغداد وغيرها من المدن العراقية فقام جهاز الأمن العراقى بجمعهم وعائلاتهم وقتلهم جميعا دون محاكمة أو حتى إستجواب.

العمل المخابراتى الأمريكى والبريطانى الخطير الثانى جاء قبل قيام صدام بشن الحرب على إيران، فقد شارك الأمريكان وحليفتهم بريطانيا صدام الإعتقاد أن النظام الثورى الإسلامى فى إيران سوف ينهار عندما يباغته صدام بهجوم مكثف عبر الحدود. وعقد صدام سلسلة من الإجتماعات السرية مع عدد من كبار المسئولين الأمريكان قبل غزوه لإيران عام 1980، وأن الأمريكان وحليفتهم بريطانيا زودوا صدام بصور الأقمار الصناعية لموقع انتشار القوات الإيرانية على الحدود المشتركة من عبدان جنوبا إلى كردستان شمالا، وأن القوات العراقية التى شنت الهجوم من البصرة على القوات الإيرانية على الضفة الشرقية لنهر قارون فى 13 يناير 1981 استخدمت قذائف تحمل مزيجا من غاز الأعصاب وغاز الخردل حصل عليهما العراق من أمريكا سرا وعلى معدات تعبئة القذائف من بريطانيا أيضا وأن تلك الاتفاقات السرية لضمان استمرار إمداد الجيش العراقى بالمواد الكيماوية والبيولوجية ثنائية الاستخدام قد أبرمت بين صدام وإدارة ريجان يمثلها – عندئذ – دونالد رامسفيلد. ويشير فيسك إلى وثيقة مهمة أعدتها وزارة الدفاع الأمريكية فى أعقاب حرب تحرير الكويت "عاصفة الصحراء" بمناسبة إصابة بعض الجنود بمرض أطلق عليه "مرض حرب الخليج" حملت الوثيقة عنوان: "صادرات الولايات المتحدة من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية إلى العراق وآثارها المحتملة على الصحة فى حرب الخليج الفارسى"، ويقول إن الوثيقة تضمنت حصرا لتلك الأسلحة ويذكر أنه فى عام 1988 صرح صدام شخصيا لستين ضباطا أمريكيا من المخابرات العسكرية الأمريكية برفقة الكولونيل ريك فرانكونا بزيارة شبه جزيرة الفاو بعد استعادتها من الإيرانيين واستطلاع نتائج المعارك هناك، وأن أمريكا وعدت صدام بتقديم ماقيمته بليون دولار معدات عسكرية على سبيل المعونة، ولكن المعاملات التجارية الحربية بين البلدين وصلت إلى ثلاثة ونصف البليون سنويا، بينما بلغت قيمة المعدات البريطانية التى تلقاها العراق عام 1989 ماقيمته 250 مليون جنية استرلينى.

وعلى ضوء هذه العلاقة الخاصة مع صدام يفسر روبرت فيسك الموقف الأمريكى من الهجوم العراقى على الفرقاطة الأمريكية ستارك فى 17 مايو 1987 الذى ألحق بها أضرارا بالغة وأدى إلى قتل سدس طاقم الفرقاطة، وقبلت الولايات المتحدة إعتذار صدام بأن الفرقاطة قصفت بطريق الخطأ، وعندما طلب الأمريكان استجواب الطيار العراقى الذى قام بالقصف رفض صدام الاستجابة للطلب ولم يصر الأمريكان على تلبية الطلب.

وإذا صح ذلك كله، فمعنى ذلك أن حليف الأمس الذى شن حربا على إيران دامت ثمانى سنوات بالوكالة عن إمريكا وحليفتها بريطانيا قد أصبح عبئا يجب التخلص منه. فهو لم ينجح فى إسقاط النظام الثورى الإسلامى فى إيران بعد تلك السنوات، وإن كان قد سبب له نوعا من الإنهاك. كما أن دوره الإقليمى قد إتسع وتشعب، فما كاد يلمح لسفيرة أمريكا بعزمه غزو الكويت حتى شجعته ضمنا، وبدأ العد التنازلى لتحجيم القوة العسكرية للعراق عام 1991 فى عاصفة الصحراء دون إسقاط النظام. فلا بد من تصفية ما لديه من أسلحة استراتجية وإستنزافه اقتصاديا عن طريق الحصار، لقد كان إستمرار صدام فى السلطة ضروريا حتى تستخدم أمريكا فزاعة صدام لإحكام هيمنتها العسكرية التامة على الجزيرة والخليج، حتى إذا تم لها ذلك جاء الدور على العراق.

ومن الجدير بالذكر أنه رغم علاقة التعاون الوثيق مع الأمريكان سمحت أمريكا لإسرائيل بضرب المفاعل النووى العراقى عام 1981 ولم يرد صدام سوى بتهديد ووعيد لم يصل إلى مرحلة التنفيذ. فقط عندما غدرت به الحليفة فى عاصفة الصحراء أطلق بعض الصواريخ على إسرائيل ونجد، ولكنها افتقرات إلى فاعلية صواريخ حزب الله فى الصيف الماضى.

جعبة التاريخ عميقة ولا زالت تضم الكثير من الأسرار. وإذا كان الأمريكان يظنون حقا أن تلك الأسرار دفنت مع صدام فذلك وهم. أو هو ضرورة مرحلية فى ظروف السعى لبناء الإمبراطورية الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين وهو محاولة لن يكون لها نصيب من النجاح بفضل مقاومة الشعوب.

تبقى دلالة هذا كله لتذكرنا بالمثل الفلاحى المصرى "آخر خدمة الغز علقة"، ولعلنا نضيف "وآخر خدمة الأمريكان الإعدام". ويفسر هذا السيناريو المشئوم موقف الخدم الآخرين المتربعين على مقاعد السلطة فيما يسميه الأمريكان بالدول الصديقة "التى تحكمها أنظمة عميلة"، ذلك الموقف الملبى دائما لكل ما تطلبه أمريكا المبرر لأعمالها حتى لو كانت تتناقص مع المصالح الوطنية وتضر بالأمن القومى. فالخدم يريدون الاستمرار فى الخدمة طالما بقيت الشعوب فى واد آخر، وها هو بوش يُذكّر هؤلاء الخدم فى خطابه الأخير بأن فشل أمريكا فى العراق سوف يؤثر سلبيا على نظم الحكم فى مصر والأردن والسعودية فهل يبحثون عن "مخدماتى" جديد ؟!